

سورة الإخلاص

مكية وأياتها أربع آيات

بين يدي السورة

* سورة الإخلاص مكية ، وقد تحدثت عن صفات الله جل وعلا الواحد الأحد ، الجامع لصفات الكمال ، المقصود على الدوام ، الغني عن كل ما سواه ، المتنزّه عن صفات النقص ، وعن المجانسة والمماثلة ، وردت على النصارى القائلين بالتثليث ، وعلى المشركين الوثنيين ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ، الذين جعلوا لله الذرية والبنين.

اللغة :

[الصمد] السيد المقصود في قضاء الحاجات ، قال الشاعر : ألا بكر الناعي بخير بني أسد

بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

[كفوا] الكفاء : النظير والشبيه قال أبو عبيدة : يقال : كفو ، وكفاء ، وكفاء كلها بمعنى

واحد وهو المثل والنظير.

سبب النزول :

روي أن بعض المشركين جاءوا إلى رسول الله ، فقالوا : يا محمد صف لنا ربك ، أمن ذهب هو ، أم من فضة ، أم من زبرجد ، أم من ياقوت ؟! فنزلت [قل هو الله أحد . . الله الصمد . .] السورة الكريمة.

التفسير :

[قل هو الله أحد] أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين المستهزئين : إن ربي الذي أعبده ، والذي

أدعوكم لعبادته ، هو واحد أحد ، لا شريك له ، ولا شبيه له ولا نظير ، لا في ذاته ، ولا في

صفاته ، ولا في أفعاله ، فهو جل وعلا إله واحد أحد ، ليس كما يزعم النصارى ويعتقدون

بالتثليث (الأب ، والإبن ، وروح القدس) ولا كما يعتقد المشركون بتعدد الآلهة ، قال في

التسهيل : واعلم أن وصف الله تعالى بالواحد ، له ثلاثة معاني ، كلها صحيحة في حقه تعالى : الأول : أنه واحد لا ثاني معه فهو نفى للعدد ، والثاني : أنه واحد لا نظير ولا شريك له ، كما تقول : فلان واحد في عصره أي لا نظير له ، والثالث : أنه واحد لا ينقسم ولا يتبعض ، والمراد بالسورة نفى الشريك ، ردا على المشركين ، وقد أقام الله في القرآن براهين قاطعة على وحدانيته تعالى ، وذلك كثير جدا ، وأوضحها أربعة براهين : الأول ؟ قوله تعالى [أفمن يخلق كمن لا يخلق ، ؟ - وهذا دليل الخلق والإيجاد - فإذا ثبت أن الله تعالى خالق لجميع الموجودات ، لم يصح أن يكون واحد منها شريكا له والثاني : قوله تعالى [لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا] - وهو دليل الإحكام والإبداع - الثالث : قوله تعالى [لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لا بتغوا إلي ذي العرش سبيلا] - وهو دليل القهر والغلبة - والرابع : قوله تعالى [ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ، إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض] - وهو دليل التنازع والإستعلاء ثم أكد تعالى وحدانيته وإستغناءه عن الخلق

[الله الصمد] أي هو جل وعلا ، المقصود في قضاء الحوائج على الدوام ، يحتاج إليه البشر ، وهو مستغن عن العالمين ، قال الألوسي : الصمد السيد الذي ليس فوقه أحد ، الذي يصمد إليه - أي يلجأ إليه - الناس في حوائجهم وأمورهم

[لم يلد] أي لم يتخذ ولدا ، وليس له أبناء وبنات ، فكما هو متصف بالكمالات ، فإنه منزه عن النقائص ، قال المفسرون : في الآية رد على كل من جعل لله ولدا . كاليهود في قولهم [عزير ابن الله] والنصارى في قولهم (المسيح ابن الله) ((يعتقد النصارى بأن الإله ثلاثة أقانيم " الآب ، والابن ، وروح القدس " وهي عقيدة التثليث التي أشار إليها القرآن الكريم

بقوله : { لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلا إله واحد } الآية ويعتقدون

بأن الثلاثة واحد ، والواحد ثلاثة ، والجنون فنون ، ويزعمون أنهم موحدون ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا)) ومشركي العرب في زعمهم الكاذب أن [الملائكة بنات الله] فرد الله تعالى على الجميع ، في أنه ليس له ولد ، لأن الولد لابد أن يكون من جنس والده ، والله تعالى أزلي قديم ، لبي كمثلته شيء ، فلا يمكن أن يكون له ولد ، ولأن الولد لا يكون إلا لمن له زوجة ، والله تعالى ليس له زوجة ، وإليه الإشارة بقوله تعالى [بديع السموات والأرض أنى يكون لهولم تكن له صاحبة] ؟

[ولم يولد] أي ولم يولد من أب ولا أم ، لأن كل مولود حادث ، والله تعالى قديم أزلي ، فلا

يصح أن يكون مولودا ولا أن يكون له والد ، وقد نفت الآية عنه تعالى إحاطة النسب من جميع الجهات ، فهو الأول الذي لا إبتداء لوجوده ، القديم الذي كان ولم يكن معه شيء غيره

[ولم يكن له كفوا أحد] أي وليس له جل وعلا مثيل ، ولا نظير ، ولا شبيهة ، أحد من

خلقه ، لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله [ليس كمثلته شيء وهو السميع البصير]

قال ابن كثير : هو مالك كل شيء وخالقه ، فكيف يكون له من خلقه نظير يساميه ، أو

قريب يدانيه ؟ تعالى وتقدس وتنزه ، وفي الحديث القدسي (يقول الله عز وجل : كذبي ابن

آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فقلوه : لن يعيدني كما

بدأني ، وليس أول الخلق بأهون على من إعادته ، وأما شتمه إياي فقلوه : إتخذ الله ولدا ، وأنا

الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد).

البلاغه :

تضمنت السورة الكريمة وجوها من البديع والبيان نوجزها فيما يلي :

1- ذكر الإسم الجليل بضمير الشأن [قل هو] للتعظيم والتفخيم.

2- تعريف الطرفين [الله الصمد] لإفادة التخصيص.

3- الجناس الناقص [لم يلد] [ولم يولد] لتغير الشكل وبعض الحروف.

4- التجريد فإن قوله تعالى [قل هو الله أحد] يقتضي نفي الكفاء والولد ، وقوله [ولم

يكن له كفوا أحد] هو تخصيص الشيء بالذكر بعد دخوله في العموم ، وذلك زيادة في

الإيضاح والبيان.

5- السجع المرصع وهو من المحسنات البديعية [قل هو الله أحد 5الله الصمد]

لطيفة :

هذه السورة الكريمة مؤلفة من أربع آيات ، وقد جاءت في غاية الإيجاز والإعجاز ، وأوضحت

صفات الجلال والكمال ، ونزهت الله جل وعلا عن صفات العجز والنقص ، فقد أثبتت

الآية الأولى الوحدانية ونفت التعدد [قل هو الله أحد] وأثبتت الثانية كماله تعالى ونفت

النقص والعجز [الله الصمد] وأثبتت الثالثة أزليته وبقاءه ونفت الذرية والتناسل [لم يلد ولم

يولد] وأثبتت الرابعة عظمته وجلالة ونفت الأنداد والأضداد [ولم يكن له كفوا أحد]

فالسورة إثبات لصفات الجلال والكمال ، وتنزيه للرب بأسمى صور التنزيه عن النقائص

والقبائح.

فائدة :

روي عن النبي (ص) أنه قال : (من قرأ [قل هو الله أحد] فكأنما قرأ ثلث القرآن) قال

العلماء : وذلك لما تضمنته من المعاني والعلوم والمعارف ، فإن علوم القرآن ثلاثة : " توحيد ،
وأحكام ، وقصص " وقد إشمطت هذه السورة على التوحيد ، فهي ثلث القرآن بهذا
الإعتبار ، وقيل : إن ذلك في الثواب أي لمن قرأها من الأجر مثل أجر من قرأ ثلث القرآن ،
والله أعلم.